قضايا النظرية والمنهج في النقد الأدبي السوفياتي

بقلم
الكسندر مياسنيكوف

يكتسب الادب والفن اهمية متزايدة باستمرار في الحياة الروحية للمجتمع السوفياتي ، وفي تكوين الانسان الجديد. وتنبغي الاشارة الى ان مكانا هاما قد كرس لهذه المسائل في تقارير نشاط الحزب الشيوعي السوفياتي ووثائقه الاخرى في مؤتمراته الثلاثة الاخيرة ، وكذلك في برنامج الحزب .

وقد طلب مراسل وكالة « نوفوستي» الى البروفيسور الكسندر مياسنيكوف ، رئيس فرع القضايا النظرية في معهد غوركي للادب ، التابع لاكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي ، الرد على عدة اسئلة تتعلق بنظرية النقد الادبي ومنهجه . وفيما يلي نص الحديث :

سؤال:

في كثير من البلدان الغربية يعتقد انصار مفاهيم النخبة بان النقد يجب أن يتوجه الى سادة الحرف والى القراء الممتازين الذين يمكن الحديث معهم عن اسرار المهنة المقدسة . ويزعم انصار النخبة هؤلاء ان هذه القضايا فوق متناول الجمهور الذي يستطيع ، في افضل الاحوال ، ان يرى فقط الترابط المتبادل بين الفن والحياة. ويميل علم الجمال (الاستاطيق) البورجوازي ، من جهة اخرى ، الى ان ينشر هو كذلك نزعة ذاتية فقيرة ، في مفهوم الفن . مثلا ، كان الكاتب الفرنسي برنار بينيو يقول ان قارىء « الرواية الجديدة» يستطيع ... ان يدخل الى الكتاب ، وان يفسره وفق مشيئته وحسب طريقته ، وان يمنحه المضمون الذي يريده (١) .

فما هو تعليقكم بهذا الصدد على السؤال : الى من يجب ان يتوجه النقد ، بالدرجة الاولى ، الى الفنان ام الى القارىء ؟

جواب : ان نظريات النخبة ، وكذلك النظريات الذاتية النزعة، غريبة عن النقد الادبي السوفياتي ، فالنقد السوفياتي يتوجه

(١)مجلة « الادب الاجنبي » السوفياتية عام ١٩٦٣ ، العدد ١١ ـ ص ٢١٥ .

رئيس فرع القضايا النظرية العالية في معهد « غوركي » للادب

باستمرار الى الكاتب والى القارىء على حد سواء . وقد قال الكتاب السوفياتيون مرارا متعددة بانه ، بدون قراء جماهيريين ، لا يوجد ادب . وفي شروط الاشتراكية ، حين يتعلق الامر ، في الممارسة العملية ، بتربية شخص بصورة متناسقة التطور ، فان دور الادب والفن في عملية التطوير هذه يكبر حتما . وذلك ما جرى التأكيد عليه بالضبط في قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي بعنوان « حول النقد الادبي » (كانون الثاني ١٩٧٢) .فهنا كذلك نجد ان دور الناقد الذي يملك ذوقا جماليا جيدا وذكاء ناضجا شيء ملحوظ في الابداع وفي حياة الاعمال الفنية .ولا يمكن الا الموافقة على الرأي الذي ادلى به مؤخرا الكاتب التقدمي الفرنسي بيار غامارا والقائل بان حياة الانسان هشة وسريعة العطب ، وتمر مرور البرق، في حين ان الروايات والاشعار تغني هذه الحياة بمعرفة مئات من الحيوات الاخرى . وقال غامارا : نحن انفسنا . ولكن في كل منا تعيش ، في الوقت ذاته ، أنا كارينينا وايما بوفاري ، ودون جوان وكازيمودو ، وجان فالجان ، وجافير ... نحن اناس جميع الاجناس وجميع الازمنة ... (٢) « ان الاعمال الفنية توسع اطار حياة القارىء وتمد مهلتها . وباستطاعة الناقد ان يلعب هنا دورا هاما . اذ ان عليه ان يعلم القارىء ثقافة القراءة . كثيرا ما يبتهج القارىء لعثوره في كتاب على فكرة حميمة لديه ، مألوفة ، تؤكد ما سبقت لمعرفته. وفي حالات اخرى ، يجتذب القارىء موضوع طريف بل فريد ، والاحساس الحاد باحداث مجهولة . وفي حالات اخرى ايضا ،يكون القارىء سعيدا بان يكتشف في الكتاب شيئا جديدا ، كان مجهولا لديه ، شيئا هاما لحياته . وعلى الناقد ان يتذكر بان التثقيف على القراءة هو عملية تطور تلتقي فيها فرديتان وحيدتان ـ الكاتب بموهبته ورؤيته الاصيلة الفذة للعالم ، والقارىء ، المختلف جدا بعالم مشاعره وافكاره . « اذ ان كل قارىء هو سر غامض ، وكنز مطمور تحت الارض . » كما كانت تقول الشاعرة السوفياتية انا اخماتوفا . ماذا سيعطي هذا الاتصال ؟ هل سيقفل القارىء الكتاب باللامبالاة ام انه سينصرف الى تأمل طويل في ما قرأه ، وهل سيعيد قراءة

(٢) مجلة « الادب الاجنبي » عام ١٩٧١ ، العدد الاول ،ص٢١٧ ـ ٢١٨ .

صفحات معينة ، وهل سيعود الى افكار الكاتب اثناء المناقشات ؟ وهل ستسجل قراءة هذ الكتاب حدثا في حياة القارىء ام انه سيكون وسيلة لقضاء وقت الفراغ ؟

ان مهمة النقد ، حسب ملاحظة صحيحة جدا قالها رسول حمزاتوف ، الكاتب السوفياتي المعروف هي « ان يكسب القارىء من الكاتب الردىء » ، وانه لتعبير موفق ، لكن هذا وجه واحد من وجوه مهمة النقد . وهناك وجه اخر ، ليس اقل اهمية وغنى، وهو تقريب القارىء من الكاتب الجيد ، وتعليمه أن يفهم بصورة افضل اعمال شكسبير ، وغوته ، ودوستويفسكي ، وتوماس ، وشولوخوف ، ونيزفال .

والناقد ضروري للكاتب ضرورته للقارىء

سؤال : المعروف ان النقد الادبي هو قطاع من علم الادب ،الذي يشكل مع النقد جزءا من طريقة ونظرية الادب ، وتاريخ الادبوغيرها من المواد المساعدة ، ان مجمل المنظومة المعقدة للنقد الادبي العصري مرتبط بالفلسفة ، وعلم الاجتماع ، والتاريخ ، وعلم الجمال .وليس من قبيل المصادفة ان قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي فيالاتحاد السوفياتي يشير ، في جمله المهمات الموضوعة امام النقد المعاصر، الى ضرورة رفع مستواه الفلسفي والجمالي . فما هي القضايا الملموسة المطروحة امام النقد على هذا الصعيد ؟

جواب : بادىء بدء ، أن على الناقد العصري ان يعرف اشياء كثيرة لكي يصبح من حقه الحكم على العمل الادبي . ومن واجبه ان يدرس بدقة التغيرات التي تحدث في مجتمعنا ، وأن يحلل عمليات التطور الاجتماعيه التي تنمو تحت تأثير التحول السريع للتاريخ ، نتيجة للثورة العلمية والتقنية ، وعلى الناقد أن يحس ، على الاخص ، باصالة عمليات التطور وطابعها المبكر ، وان يبين كيف تؤثر على تطور الفن العصري . انه أمام واقع جديد . واعمال فنية جديدة ، وامامه اكداس من الكتب والمقالات التي حاول فيها سابقوه ومعاصروه ان يحللوا طرق تطور الفن العالمي والقضايا النظرية الرئيسية .

ان تحليل العمل الفني لا يمكن ان يقتصر ، طبعا ، على مقابلة تجريبية بين المكتوب في هذا العمل وبين نمط معيشة اصدقاء الناقد ومعارفه ، بل أن على الناقد ان يدرك ، بحساسية ، المنطق الداخلي لتطور الحياة على نطاق اجتماعي اوسع بكثير . ومن جهة اخرى لا يمكن الكشف عن مضمون العمل خارج خصائصه كنوع أدبي معين ، ولا خارج تركيبه ، ومنظومة صراعاته وصوره واسلوبه ولغته . لذلك لا يمكن في رأيي ايجاد تعارض بين القوانين الداخلية للعمل الادبي وبعض القوانين الخارجية المعينة . ومعروف أن هذا التقسيم الى مقولات جمالية وغير جمالية هو من خاصية المدارس الشكلية . وتفترض هذه المدارس ان مسائل حركة تكون العمل الادبي ودوره الوظيفي تخرج عن اطار التحليل الجمالي (الاستاطيقي) العلمي ، ويميز ممثلو هذه المدارس بين القوانين الكامنة الداخلية التي تشمل ، في رأيهم ، خصائص النوع ، والتركيب ، والموضوع ، والصراع ، ومنظومة الصور واللغة ـ وبين بعض القوانين الخارجية ـ صلة العمل بالواقع وموهبة الفنان ومفهومه للعالم ، ومعرفته باهمية عمله الاجتماعية والجمالية بالنسبة للقارىء . وربما كان مفيدا لمؤرخ الادب والناقد الادبي عند مرحلة معينة من الدراسة ، ان يميزا بين مجموعات هذه القوانين ، الا ان اعتبارها متعارضة يناقض روح الفن ذاته . ولا يمكن فهم اهمية عمل ادبي ما ، وصلته بالحياة ، الا باستيحاء قوانين الفن ، وليس خارج هذه القوانين .

سؤال : في العقود الاخيرة يقدم العلماء الغربيون اسهامهم في دراسة خصائص العمل الادبي . وهذا الاسهام يرتكز على منظومة من التأويل والتفسير ، ودراسة بنية مغلقة على ذاتها ، وابراز وتحليل طبقات متعددة لكيان فني قائمة في نسق تراتبي (هيراركي)،والعديد من الاشياء الاخرى . فما رأي نقاد الادب السوفياتيين في هذا الصدد ؟

جواب : ما زال ينبغي لنا أن ندرس دراسة جدية هذه القضايا المعقدة ، ولا سيما تقييم الطريقة البنيانية او البنيوية (ستروكتوراليسم) العصرية في العلم والادب . وهذه المهمة ليست بسيطة . ان العديد من نقاد الفن السوفياتيين يعارضون الاولوية المعطاة للطريقة البنيوية بصفتها اساسا ايهاجيا (ميتودولوجيا) وحيدا لتحليل جميع ظاهرات الطبيعة والمجتمع ، وفي الوقت نفسه ، يعارض هؤلاء النقاد النفي المتعالي لجميع مبادىء البنيوية. ان بعض البنيويين السوفياتيين يقدمون بصورة ملحوظة الكثير من المواد التي توضح الموقف السلبي من البنيوية، وهم ، دون أن يقوموا بدراسة فيلولوجيه معمقة ، كثيرا ما يتسارعون لاستخلاص استنتاجات بديهية تماما او ذات تعقيد مفرط جدا .

أن المرحلة العصرية لتطور علم الادب تطرح كذلك قضايا اخرى هامة . مثلا ، ثمة أسباب للافتراض بان دراسة دقيقة متأنية ومعمقة ومقارنة بين الادب السوفياتي ، وادب البلدان الاشتراكية ، وادب العالم الرأسمالي العصري سوف تتيح الكشف ايضا عن السمات الخاصة لتطورها ، التي لم تجد تسميات حتى الان . ولسوف يتطلب هذا جسارة الباحث ، اي القدرة على تفحص الظاهرات في اصالتها وبكارتها العطريتين ، والتخلي عن النظر الى الظاهرات الجديدة على نطاق المرحلة الماضية من التطور .

سؤال : هناك سمة مميزة في قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي حول النقد ، تبرز جلية ، أن مهمة تأكيد المثل العليا ، الثورية ، الانسانية للفن السوفياتي مرتبطة هنا بمهمة الكشف عن الطبيعة الرجعية لـ « ثقافة الجماهيرية » البورجوازية والنزعات الانحطاطية ، هذه المهمة المرتبطة بدورها بالنضال ضد مختلف الآراء غير الماركسية حول الادب والفن ، وضد المفاهيم الجمالية التحريفية . فما هي المهمات الملموسة التي يطرحها حل هذه القضية على النقاد ؟

جواب : ينبغي لحل هذه القضية التوصل الى استنتاجات واسعة النطاق تحدد النزعات الرئيسية لتطور الفكر الجمالي البورجوازي المعاصر . وقد بدأت هذه الاستنتاجات تتكون فعلا . مثلا ، في المتاهة الفوضوية الظاهرية للمفاهيم الجمالية خلال الاعوام العشرين الاخيرة ، يتيح تحليل متأن ، مفعم بالانتباه ، تميز نزعات رئيسية . ففي الخمسينات ومطلع الستينات من هذا القرن ، كانت الوجودية والميتولوجيا (النزعة الاسطورية) وغيرها من النزعات الموجهة ضد الوضعية والنظرية تسيطر في علم الجمال البورجوازي . وفي منتصف الستينات ، احتلت البنيوية المرتبة الاولى ، وهي ، بالرغم من وجهات النظر الذاتية النزعة لدى روادها ، تتيح ان تحدد ، بصورة مضبوطة قوانين تطور الفن ، هذه القوانين المتحقق من صحتها رياضيا بواسطة الآلات الحاسبة والابحاث السيبيرنينية . ولنذكر بان التدخلات ضد الظاهراتية (الفينومينولوجيا) ، والوجودية ، وطريقة التفسيرات والتأويلات ، ومبادىء ما سمي بـ « النقد الجديد » ، والمذاهب الاخرى الذاتية النزعة كانت تجري كذلك منذ بدء الستينات تحت شعار مفهوم مبتكر للنزعة التاريخية (الاعتماد على اولويات تاريخية في الدراسة النقدية) والنزعة الاجتماعية (اعتماد معطيات علم الاجتماع اسسا اولوية لدراسة العمل الادبي والفني) . والحال ، فان اكثر ما يتصف به العالم البورجوازي حاليا ، هو مختلف انواع المذاهب الانتقائية .

هنا يظهر قانون بالغ الاهمية . ان المذاهب البورجوازية التي تدعي انها تعطي تفسيرا شاملا للقوانين العامة للحياة والفن لا تصمد لتجربة الزمن ، وهي ، واحدا اثر الآخر ، تبتعد نحو الاطراف الضحلة لخريطة العالم الجمالية . ان العلم السوفياتي للادب المشيد

على اساس مبادىء الفلسفة وعلم الجمال الماركسيين ـ اللينينيين يهدف الى اعطاء لوحة منهجية مفصلة من المفاهيم العلمية عن الوضع الراهن للفكر الجمالي العالمي .

سؤال : لقد اكد قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي على ان النقد الادبي مدعو لتوسيع الافق الايديولوجي للفنان وتحسين مهارته . وينبغي له ان يجمع بين دقة التقييمات العلمية، وعمق التحليل الاجتماعي ، والتطلب الجمالي ، ورعاية المواهب ، والاهتمام بالابحاث الفنية المثمرة . فما قولكم في هذا الصدد ؟

جواب : منذ بضع سنوات ، اخذ بعض الكتاب الاجانب والسوفياتيين ، وقد بهرتهم النجاحات الهائلة للثورة العلمية والتقنية، ونفاذ الانسان الى عالم الذرة والفضاء الكوني ، واكتشاف السيبيرنيتية، اقول : اخذ هؤلاء الكتاب يتحدثون عن ابداع « اسلوب موحد » ، هو اسلوب العصر . وقدم التعريف التالي لهذا الاسلوب : الايقاع العارم ، والايجاز الشديد ، والطابع المجزأ ، والتركيب غير المتلاحم ، « الحر » ونقل « تيار الوعي » الخ . وقد بين نقادنا ان صفة الاسلوب في الفن لا يمكن تحديدها مباشرة بواسطة عمليات تقنية ، واكثر من ذلك استحالة امكانية نسخها . وفي الوقت نفسه ، كان المدافعون عن الاسلوب العصري الموحد يحكمون في الحقيقة على الفن باحادية الشكل ، ويستبعدون البحث والحلول الفنية المبتكرة في ميدان الفن .

وفي مناقشات نقاد الفن السوفياتيين ما تزال المجادلات حول النثر الوثائقي والقصصي تشغل مكانا كبيرا . وينشأ لدى المرء انطباع بان قطبين من التطور الادبي المعاصر قد ظهرا . النثر الوثائقي يرتكز على الموضوع الموصوف ، والنثر القصصي يرتكز على الرؤية الذاتية لعالم الكاتب . ويؤكد ممثلو هذا التيار او ذاك بانه لا يمكن بلوغ حقيقة الحياة الا بالطرق التي اختاروها . ان المناقشة حول النثر الوثائقي والنثر القصصي قد طرح مسألة هامة ، وقديمة جدا ، وتظل جديدة باستمرار ، حول العلاقة بين حقيقة الحياة والتصور الخلاقة في الفن ، وحول خصائص طريقة وصف الحياة .

الوثائقيون يشككون في جميع انواع التخيل الفني ، وبجميع الانواع الادبية الاصطلاحية . وهم يستصغرون امكانات التعميمات الخلاقة الجسور . وبعضهم لا يعترف الا بـ « حقيقة الحادثة الواقعة » التي يميل بعض النظريين الى جعلها معارضة لـ « حقيقة العصر » . ان نظرية الوثائقيين في تفسيرها الوحيد الجانب تنزع الى التطور نحو الوصف الطبيعي النزعة (نانوراتيست) واثر ذلك نحو النزعة الموضوعية الخالية من اية انطلاقة .

اما النثر القصصي ، فهو ، باهتمامه المركز على العالم الداخلي للانسان ، ومقابلته بين حقيقة الاحساس الذاتي وحقيقة العالم الواقعي، ينزع ، من جهته ، ليحل محل المفهوم الشخصي للحياة ، التشويه الذاتي النزعة ، والميل لتبرير ما يسمى « تيار الوعي » .

ان النقد السوفياتي بنبذه هذين الاتجاهين المتطرفين ، يدرس بدقة واناة دور الوثيقة في الادب الفني المعاصر ، واصالة الاساس الفنائي في النثر الفني .

وتبين تجربة تطور الادب بان الكتاب يصلون حتما الى استنتاجات خاطئة حين يعطون الاولوية الى ميدان معين من ميادين الحياة ، مع انتزاعه من المنظومة المعقدة للحياة الاجتماعية ، او حين يعطون هذه الاولوية لطريقة فنية ما . ذلك ما حدث ، مثلا ، لبعض الناثرين والشعراء والنقاد السوفياتيين الذين كانوا يعتبرون ان العنصر الشعبي الحقيقي والوحيد هو وصف المظاهر الطريفة ، من عادات وتقاليد ابوية بطريركية ما زالت قائمة في ايامنا في بعض الارياف ، باعتبارها تحديا للتقنية الجديدة للآت والعلاقات الاجتماعية الجديدة .

ويمكن الاستمرار في ايراد امثلة عن وجهات نظر خاطئة من هذا النوع . والمهم التأكيد على ان نقدنا قد استطاع ان يكشف خلال مناقشات واسعة عن الوهن العلمي لوجهات النظر هذه ، مقدما بذلك اسهاما فيما لتطور العملية الادبية في البلاد السوفياتية .

سؤال : كان لينين يقول ان صحة جميع النظريات تتحدد بعلاقتها بـ « الحياة الواقعية » . ان قيمة الاعمال الفنية تتوقف ايضا على علاقتها « بالحياة الواقعية ، الحقيقية » ، رغم ان هذه العلاقة هي ، في هذه الحالة ، اكثر تعقيدا بكثير ، واشد ارتباطا بالبيئة . كيف تفهم هذه القضية في منظور الواقعية الاشتراكية ؟

جواب : المعروف ان التغيرات الاجتماعية الهائلة التي حدثت ، والثورة العلمية والتقنية في منتصف هذا القرن ، قد شكلت مجددا « الحياة الواقعية » المعاصرة . وقد شعر بذلك ، الكتاب والنقاد السوفياتيون . لقد قال الاكاديمي ك. فيدين لدى افتتاحه عام ١٩٥٩ المؤتمر الثالث لكتاب الاتحاد السوفياتي ان مادة الحياة الجديدة تحطم القوانين القديمة للشكل الادبي ، وانها تتطلب ملابس جديدة . وكذلك فان ليونيد ليونوف ، وهو كاتب سوفياتي بارز آخر ، قد فكر كثيرا في « الحياة الواقعية » التي اصبحت اكثر تعقيدا . وقال ليونوف : ان الاحداث التي تجري في العالم المعاصر بما تتصف به من حدة وقوة تعبير ، تستند الى مئة مليار احداثية . في حين ان ليون تولستوي ذاته لم يكشف الا عشرين احداثية ، منها ، تقريبا ، واكد ليونوف قائلا : لذلك فعلى الفنان ان يعثر على « شكل الحدث » ، ان العثور على « الشكل الجديد للحدث » ، هذا الشكل المطابق للحياة المعاصرة المعقدة ليس شيئا سهلا . وفي رأي ليونوف أن « شكل الحدث هذا » يجب ان يشبه البذرة التي تحتوي جذع الشجرة المقبل ، واغصانها واوراقها . ان عمل الفنان هو تعقيد قادر منطو على ذاته ، يجب ان يوقظ خيال القارىء ويستحثه على التفكير واستخلاص استنتاجات .

ان تعدد أشكال وصف الحياة هو قانون لتطور الواقعية الاشتراكية ان بنية العمل الفني ذاتها تتغير اليوم . ونشهد عملية تركيبية فذة بين الانواع . وينعكس الزمان والمكان باشكال الحياة ذاتها وباشكال تقليدية اصطلاحية ، على حد سواء . ويزداد دور الوصف المجازي ، ويظهر القاص الوثائقي والبطل الفنائي في شكل يختلف عن شكلهما سابقا ، في النثر والشعر . ويزداد دور الوثيقة في الادب . ونشهد حاليا تأثيرا متبادلين بين الاداب الوطنية .

ولدى درس هذه القضية ، يحسن التذكير بفكرة اخرى ممتازة لبيلنسكي ، اذ كتب يقول عام ١٨٤٢ : « ان الفن والادب يسيران مع النقد جنبا الى جنب ، ويمارس احدهما على الآخر تأثيرا متبادلا . فاذا ما فتحت عبقرية جديدة للعالم ميدانا جديدا في الفن ، تاركة وراءها النقد السائد ، موجهة اليه ضربة مميتة ، فان تطور الفكر الذي يحدث في النقد يقوم ، من جهته ، باعداد فن جديد ، سابقا وقاتلا الفن القديم » . ان عملية التطور هذه للتأثير المتبادل بين النقد والادب المعاصرين ما تزال غير مدروسة بما فيه كفاية ، واذا لم نقم بدراستها وتحليلها ، فلن نحصل على لوحة كاملة لعملية التطور الادبية العصرية . ومن الضروري ان ندرس اليوم ايضا بصورة اكثر دقة وتأنيا عملية تطور الواقعية الاشتراكية في بلدنا ، وفي البلدان الاشتراكية الاخرى ، والبلدان الرأسمالية ، ودراسة عملية التطور الادبية العالمية للفترة الراهنة . ومن جهة اخرى ، فان اهمية خاصة تعود هنا الى دراسة تطور الفكر الجمالي والانتقادي في ايامنا في مختلف البلدان وتفاعله مع عملية التطور الادبية .

ان الطبيعة التجددية للواقعية الاشتراكية التي تتطور في العصر الذي لم يعد يستطيع التاريخ ان يتطور فيه خارج الاشتراكية والشيوعية ، لا يمكن ان تتجلى تجليا كاملا الا اذا درس الفن الاشتراكي على مهاد تطور مجمل الفن العالمي ، والفكر الفلسفي ، وعلم الاجتماع، وعلم الجمال ، وبارتباط معها جميعا ، ان موضوعة الواقعية الاشتراكية

وعملية التطور الادبية العالمية هي من اكثر القضايا الحاحا في علم الادب المعاصر .

وسيكون من الخطأ الفادح التأكيد بأننا نفعل ولا نفعل شيئا في هذا الميدان . فلقد نشرنا مؤلفات هامة حول تاريخ الادب الروسي السوفياتي وتاريخ الادب السوفياتي المتعدد القوميات ، وتاريخ آداب شعوب الاتحاد السوفياتي ، وتاريخ الادب المعاصر للعديد من البلدان الاشتراكية والعالم الرأسمالي . ان مسألة قوانين ونزعات عملية التطور الادبية العصرية تجري دراستها في مؤلفات مكرسة للواقعية الاشتراكية وللتطور التاريخي للواقعية ، ولشخصية الكاتب الخلاقة ، ولطريقة الابحاث الادبية ، وذلك في كتب تحلل مختلف مراحل تطور الادب السوفياتي ، وفي دراسات علمية كبيرة تعالج اعمال كتاب سوفياتيين بارزين ، وفي مقالات وابحاث تتعلق بالقضايا الاساسية للادب السوفياتي : الروح الحزبية في الادب والفن ، الطابع الوطني، تعدد الانواع والاساليب ، الخ . وفي هذه المؤلفات التي صدرت في العشرين عاما الاخيرة ، يمكن العثور على كثير من الملاحظات الثمينة التي تتيح فهم بعض خصائص عملية التطور الادبية المعاصرة واتجاهات تطورها ، لكننا ما زلنا نجد ثغرات كبيرة في العديد من المؤلفات ،على الطريقة التحليلية ، وان انتقاء الاعمال الفنية على اساس الموضوعات او الانواع المعينة يسيطر ، بصرف النظر عن خصائصها الفنية.وفي امثال هذه المؤلفات ، تجري دراسة هذه الخصائص ، في افضل الحالات ، جنبا الى جنب مع تحليلها بالنسبة لموضوعاتها وايديولوجيتها ، ولكن كثيرا ما يحدث ذلك بمثابة ملحق بسيط لهذا التحليل . وهكذا يحدث انشطار لنواة العمل الادبي ذاته . وقد بينت التجربة بان الطريقة القائمة على وصف الموضوعات قليلة الاسهام في تحليل الخصائص وفي معرفةاتجاهات ونزعات عمليات التطور الفنية .

سؤال : ما هي حلقات عملية التطور هذه التي تتطلب دراسة اضافية في النقد والعلم الادبي المعاصرين ؟

جواب : سأكتفي بايراد بعض هذه الحلقات : نشوء وتكون الواقعية الاشتراكية ، ومسألة « ازمة » الواقعية الانتقادية في اواخر القرن التاسع عشر ، والقضايا المعقدة لانتقال بعض الكتاب من الواقعية الانتقادية والمدارس « المتعصرنة » الى مواقع الواقعية الاشتراكية . وهذه الطرق مبتكرة دائما وطريفة جدا ، ولا تتكرر ابدا على الصعيد الشخصي ، وهي ترتبط ، في كل مرة ، بخسائر ومكاسب ، على حد سواء . ان الاكتشافات الفنية في اعمال هؤلاء الكتاب ، المعتمدين مختلف الطرائق ، كثيرا ما تتناسق بصورة عجيبة .

وفي رأيي أن قضية مراحل تطور الواقعية الاشتراكية تكتسب ، في ايامنا الحاضرة ، اهمية خاصة . ولا ننسى ان هذه الطريقة الفنية موجودة منذ اكثر من سبعين عاما ، وان عدة اجيال من الكتاب قد ابدعوا اعمالا هامة في اطار الواقعية الاشتراكية . ان مراحل تطور هذه الطريقة كثيرا ما لا تتطابق مع مراحل تطور التاريخ المدني ، مع ان التاريخ ، دون اي شك ، له عليها تأثير هائل . ان دراسة تاريخ الواقعية الاشتراكية على اساس العقود من السنين يحدد بصورة تقريبية جدا اصالة كل مرحلة من هذه المراحل .

منذ نهاية الستينات ، تستمر مناقشات ومجادلات عندنا حول صحة مفاهيم كمفهوم « ادب العصر السوفياتي » ، و «الادب السوفياتي» ودور الواقعية الاشتراكية فيهما ، وحول اندراج اعمال كتّاب الواقعية الانتقادية او فناني النزعات العصرية ، اندراج اعمالهم في الواقعية الاشتراكية ، علما بان كتّاب « النزعة العصرية » قد وعوا الضيق الاجتماعي لطرائقهم ، كما تجري عندنا مناقشات حول مدى اتساع هذه المفاهيم . ومن المهم جدا حل القضايا التي ذكرناها للقيام بتحليل وضع الآداب في البلدان التي انتهجت طريق التطور الاشتراكي، لدراسة القيمة الوظيفية لطرائق فنية معينة يشملها التركيب الفني الجديد .

ويحسن التذكير هنا بكيفية حلنا نحن قضية التقاليد والتجديد ، مثلا . لقد مر زمن كانت الواقعية الاشتراكية تعارض فيه بكل واقعية سابقة . واثر ذلك ، شرع نقادنا ونظريو الادب عندنا بدراسة تقاليد الماضي ، وكذلك تقاليد الفن السوفياتي ، وجاءت هذه الدراسة جد مثمرة . وانني افترض بانه باستمرار هذه الدراسة لا ينبغي نسيان ان الروح المجددة في الطريقة ذاتها ليست شيئا سيئا او غير مرغوب فيه في نظر الواقعية الاشتراكية ، وانه اذا كان ابداع ما ، من ابداعات الخمسينات والستينات لا يشبه رواية « ل ارتامانوف » لغوركي ، او رواية فورمانوف « تشاباييف » ، او « سيل الفولاذ » لسيرافيموفيتش او لا يشبه قصيدة مایاكوفسكي الطويلة « هذا جيد » ، او اي عمل مرموق آخر من اعمال الاعوام السابقة ، فليس ذلك ، مطلقا ، سببا لاعتبار ان العمل الجديد فاشل . والمعروف ان الكاتب الذي لا يكرر اكتشافات سابقيه من المبدعين ، بل انه ، انطلاقا مما تم انجازه ، يقوم باكتشافات جديدة ، هو وحده الذي يطور تقاليدهم بشكل خلاق. ومؤكد ان ثمة ايضا اكتشافات مجددة في الادب السوفياتي حققت في الخمسينات والستينات . ونحن لم نع بعد وعيا كافيا هذهالاكتشافات ولا يمكن الا بدراسة هذه الابداعات دراسة دقيقة متأنية فهم الطابع الخاص للمرحلة الحديثة من تطور الواقعية الاشتراكية والطريق التي سوف تنتهجها .

سؤال : ان تطور الادب السوفياتي في العقدين الماضيين قد سار جنبا الى جنب مع تطور الفكر الجمالي والادب خلال هذه الفترة . فما هي اهم المناقشات الادبية التي جرت خلال هذه الفترة ؟

جواب : سوف اذكر ، بترتيب زمني ، بعض هذه المناقشات . في مطلع الخمسينات جرت مناقشة حول خصائص بطل زمننا ، « البطل الامثل » ، تلاها حوار حول التعبير في الشعر ، والفهم الصحيح للمبدأ اللينيني للروح الحزبية في الادب . وفي اواخر الخمسينات ، نوقشت كثيرا مسألة ازمة الواقعية الانتقادية وخصائص الواقعية الانتقادية المعاصرة . وفي عام ١٩٥٧ شهدنا مناقشة حول الواقعية في الادب العالمي ، وقد سجلت هذه المناقشة خطوة في حل القضايا الاساسية لعلم الادب . واثناء الفترة ذاتها ، نشب نقاش صاخب حول « الفيزيائيين » و « الغنائيين » ، والعلاقة بين اشكال المعرفة العلمية والفنية للعالم . وفي مطلع الستينات قام حوار حول النزعة الانسانية في الادب المعاصر . وعام ١٩٦٣ ، ناقش كتابنا مصير الرواية والواقعية وذلك في دورة اتحاد الكتاب الاوروبيين ، التي عقدت في لينغراد . وفي العام التالي ، عقدت مناقشة حول القضايا المعاصرة للواقعية و « النزعة العصرية » (المودرنيسم) ، وعام ١٩٦٦ ، عولجت القضايا الراهنة للواقعية الاشتراكية . وفي العام التالي كرست دورات تذكارية لتطور الادب السوفياتي وعلم الادب خلال الخمسين عاما من وجود الدولة السوفياتية . وفي الذكرى المئوية لميلاد لينين جرت في ضوء جديد ومعمق دراسة بعض قضايا تراث لينين واهميته بالنسبة لتطور علم الادب . وخلال العشرين عاما الاخيرة ، عقد اتحاد كتاب الاتحاد السوفياتي اربعة مؤتمرات نوقشت فيها القضايا الرئيسية لتطور الادب السوفياتي وتاريخه .

واليوم تواجهنا مهمة مزدوجة من الابحاث . اولا ، التفكير في حصيلات هذه المناقشات ، وغيرها مما لم يذكر هنا ، ولن يكون هذا التفكير تبعا لترتيب زمني باعتبار المناقشات المذكورة احداثا ادبية ، بل تفسير حصيلات تلك المناقشات بصفتها عملية تطور للابحاثالخلاقة. ثانيا ، بيان كيف ان هذه المناقشات كانت مرتبطة بعملية التطور الادبي في العقدين الماضيين ، وقد ولدت منها ، وانها كانت ، الى حد ما ، تعين طرق تطور الادب السوفياتي . أن هذه المعالجة العقلانية ستتيح الرد على العديد من المسائل النظرية التي تهم نقاد الادب والكتاب ، على حد سواء .

وينبغي التنويه بان عملية التطور الادبي والمناقشات الادبية في الاتحاد السوفياتي لا تجري في دائرة مقفلة على ذاتها . فان كثيرا من الخصائص المعقدة لتطور الادب السوفياتي وآداب البلدان الاشتراكية لا يمكن فهمها فهما كافيا اذا لم تجر مقابلتها باتجاه تطور الادب في العالم باسره ، ذلك لان ادب البلدان الاشتراكية ينبغي ان يعتبر بمثابة حلقة هامة جدا من حركة التطور الادبي العالمي المعاصر .